بنيةُ القصيدةِ في شِعْرِ علي بنِ جَبَلة العَكوَّك
دراسة تحليليَّة نقديَّة

أ. د. محمَّد زروق الحسن علي*

مستخلص باللغة العربية:

بنية القصيدة في شعر علي بن جَبَلة العَكَوَّك

يتناول هذا البحثُ بالدرس والتحليل مكونات بنية القصيدة في شعر علي بن جَبَلة المُلَقَّب ب(العَكَوَّك) من مقدمة وتخلُّص وخاتمة ووحدة قصيدة.اشتمل البحث على مستخلص باللغتين العربية والإنجليزية وتوطئة وتمهيد عرَّف علي بن جبلة وشيئاً من أغراض شعره،وأربعة محاور بعدها خاتمة وثَبْت بالمصادر والمراجع.المحور الأول: مقدمة القصيدة وفيها عدة أَضْرُب مقدمة وصف الشَّيْب وبكاء الشباب، والمقدمة الغزلية والطللية وغيرها من المقدمات.المحور الثاني: التخلُّص وفيه ضربان: التخلُّص الحَسَن والمفاجئ.أمَّا المحور الثالث فتناولتُ فيه خاتمة القصيدة، ما بين خاتمة جيِّدة وأخرى مفتوحة. والمحور الرابع خَصصتُه لدراسة وحدة القصيدة.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها ألقتْ أضواءً على شاعر عباسيّ قلَّما درسه الباحثون والدارسون.وقد خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها:

- استهل ابنُ جَبَلة بعضاً من قصائده بوصف الشَّيْب وبكاء الشباب، مُتنازَعاً بين المشيب وأُنْس الشباب.
- له مقدمات غزلية مُفْعَمة بالهُيام والرقة والعذوبة بعيدة عن الإسفاف والتدنّي.
- له تخلُّصات جيِّدة للغاية تخلَّص فيها إلى غرضه الرئيس بطريقة بارعة.
- ختم جُلَّ قصائده بخواتيم جيِّدة أوحت بانتهاء الكلام فكانت قُفْلاً له، وله خواتيم أخرى مفتوحة لا تُوحي بانتهاء الكلام.
- نصيب وحدة القصيدة يسير في شعر ابن جبلة، إذ توجد وحدة شعور في قصيدة واحدة رثى بها حُمَيْدًا الطوسيَّ.

*أستاذالأدب والنقد بكليَّة اللغة العربيَّة - رئيس قسم الدراسات الأدبيَّة والنقديَّة - جامعة أم درمان الإسلاميَّة.

Abstract
The Poems' Structure In The Poetry
Of Ali Bin Jabala Al Ka'aok

The research investigates and analyses the components of the poems structure the poetry of Ali Bin Jabala, also known as "Alka'aok in terms of the poem commencement, poetic topic-shifting, conclusion, and unity of the poem. The research contains abstracts in both languages; Arabic and English, an introduction and preamble about Ali Bin Jabala, besides, few words about the purposes of his poetry. The study consists of four sections, followed by a conclusion and a list of references. The first section: the commencement of the poem which includes various types of poem's commencement, of grey hair "state of being old" and crying over the past youth, romantic, ruins and other types of commencement. The second section: poetic topic-shifting. The third section tackles the poem conclusion. The fourth section is dedicated for studying the poem's unity.

The significance of the study resides in shedding lights on an Abbasid poet whom few researchers conducted research on him.

The study arrives at numbers of findings and results, here are the most important ones:

-Ibn Jabala started some of his poems with describing the grey hair and crying over the past youth, he was torn between getting old and reminisce of young days.

-He had romantic commencements full of love, delicateness and charming away from triviality and obscenity.

-He had very proper poetic topic-shifting in which he shifted from his main topic very creatively.

-He finished most of his poems with proper conclusions which indictated finishing of the poems, he had other open-end conclusions which indicated that the poem was not finished.

-The share of poem's unity was insignificant in Ibn Jabala's poetry, yet there was unity of feeling in a poem in which he elegized Homeid Altosi with.

توطئة

تُعدُّ بنية القصيدة من الموضوعات المهمة في النقد العربيّ القديم فقلَّما خلا مصدر من الحديث عنها؛ لأنها تضع الصُّوى في طريق الشاعر لكي يُجوِّد مطلع قصيدته، ثم يتخلَّص إلى موضوعه الرئيس بطريقة سلسة لا مفاجأة فيها، ثم يختم قصيدته بأجود بيت فيها؛ لأنه آخر ما يبقى في الأسماع.

ولعلَّ الحديث عن بنية القصيدة كَلِفَ به النقاد المحدثون ذاكرين مفاهيم الوحدة في القصيدة من وحدة شعورية وموضوعية إلى عضوية.

ترجع صلتي بشعر علي بن جَبَلة العَكَوَّك إلى أعوام خلت لمَّا كنت أُراجع شعره ولاسيما رائيته (ذاد وِرْدُ الغيِّ عن صَدَره...) فأكلف بترادها، فكانت مدخلاً لقراءة شعره ودَرْسه، فضلاً عن مزاوجته بين القديم والجديد في عصره مضموناً وشكلاً.

ومما تقدم ذكره، فإن دراسة بنية القصيدة في شعر ابن جَبَلة من شأنها أن تُبرز بناء شعره: مقدماته، تخلُّصاته، خواتيمه، ووحدة القصيدة عنده. وقد حاولتُ جاهداً تطبيق ما حَضَّ عليه النقاد في بنية القصيدة، مُستقرئاً شعر ابن جَبَلة بدءاً من مقدماته وانتهاءً بوحدة القصيدة عنده، واضعاً منهجاً تحليليّاً نقديّاً مكوناً من: توطئة وتمهيد درستُ فيه حياة ابن جَبَلة وشعره، بشيء من الاقتضاب. ثم عقدتُ أربعة مباحث، المبحث الأول: مقدمة القصيدة وفيه ستة أضرب من المقدمات: مقدمة وصف الشيب وبكاء الشباب، والمقدمة الغزليَّة، ومقدمة العتاب والاعتذار، والمقدمة الطلليَّة ومقدمة وصف الطبيعة والخمر. أمَّا المبحث الثاني فخصصتُه بدراسة التخلُّص، والثالث: خاتمة القصيدة، والرابع وحدة القصيدة، ثم ختمتُ الدراسة بمُلخَّص لأهم نتائجها، وثَبْت بالمصادر والمراجع.

تمهيد

علي بن جَبَلة: حياته وشعره

أولاً: حياته:

هو علي بن جَبَلة بن مُسلم بن عبدالرحمن، من أبناء الشيعة الخراسانيَّة يُكنَّى أبا الحسن، كان أسودَ أبرصَ، ولقبه العَكَوَّك (بعين مهملة وكافين وبينهما واو مشددة) لقبَّه الأصمعيُّ بين يديْ الرشيد، ومعناه القصير السمين[1].

(1) انظر أخبار علي بن جَبَلة في: الشعر والشعراء بتحقيق أحمد محمَّد شاكر 864/2-868، والأغاني 100/18-114، وطبقات ابن المعتز ص171-185، وسمط اللآلئ للبكريّ 33/1، وتاريخ بغداد 359/11، =ونكت

علي بن جَبَلة من شعراء العصر العباسيّ الأول، ولد بحي الحربيَّة في الجانب الغربيّ من بغداد سنة ستين ومائة للهجرة، كان أصغر إخوته، مما جعل والده يؤثره من دونهم بمحبته ورعايته[1].

اختلف الرواة في فَقْده لبصره اختلافاً بيّناً، فمن قائل إنه ولد أكمه مكفوفاً لا يُبصر[2]، ومن قائل: إنه أُصيب بالجُدري في سن السابعة، فذهبت إحدى عينيه، ثم فُقئت عينه الثانية بعد ذلك، ومن قائل: إنه كُفَّ بصره وهو صبي[3].

بيد أن حُسَيْن عَطْوَان مُحقِّق شعر ابن جَبَلة رجَّح القول بأن شاعرنا ابن جَبَلة ولد ضريراً، وحُجَّته في ذلك قوله: "فالراجح عندي أنه ولد ضريراً، إذ لو كان ولد مُبْصِراً، ثم ابتُلي بفقده عينيه واحدةً تلو الأخرى لكان يمكن أن يرثيهما ويتحسَّر عليهما، غير أن ما بقي من شعره لا ينبئ بذلك"[4].

فرأى عطوان مقبول ولكنه ليس مُقنعاً، وربما رثى ابن جَبَلة بَصَرَهُ ولكنَّ شعره في رثائه ضاع كما ضاع أكثره، وعليه يظل الأمر خلافيّاً بين القدماء الذين ترجموا له ورووا شعره.

حددت هذه العاهة (العمى) التي أُصيب بها شاعرنا ابن جَبَلة منذ صغره اتجاهه في حياته، إذ ملأت قلب أبيه عطفاً عليه، وبرّاً به. فألحقه بمدرسة من المدارس تعلم فيها ما يتعلَّمه الصبيان من أطراف العلم. ولم يكد يشبُّ حتى أخذ إخوته يختلفون به بتوجيه من والدهم إلى مجالس العلم والأدب. وقد أفاد من ذكائه مستمعاً إلى دروس الشعر واللغة والنحو، وما يدور بين العلماء من محاورات ومناظرات في المذاهب الكلامية والمسائل العقلية، فإذا هو يفقه أسرار العربية، ويحفظ غير قليل من الشعر لغير شاعر من الجاهليين والإسلاميين والعباسيين وكان لذلك ثمرتان: الأولى أنه أذكى موهبته الشعرية، وهذَّبها وزوَّدها بذخيرة من روائع الشعر. الثانية وسَّع مداركه وخياله ونمَّى طاقاته العقلية، مستنبطاً أدق المعاني، راسماً أطرف الصور[5].

الهميان للصفديّ ص209-210، ومرآة الجنان لليافعي 53/2-54، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبليّ 55/2، والبداية والنهاية لابن كثير 267/10، ووفيات الأعيان لابن خلكان 306/3-307.

(1) انظر: الأغاني 100/18.

(2) الأغاني 100/18، ونكت الهميان ص209، ووفيات الأعيان 306/3.

(3) تاريخ بغداد للخطيب البغداديّ 359/11، والبداية والنهاية 268/10، ومرآة الجنان 53/2.

(4) شعر علي بن جَبَلة بتحقيق د. حُسين عطوان، ص9.

(5) شعرا بن جَبَلة ص10 (بتصرف)، وانظر أيضاً: الأغاني 101/18.

لم تذكر المصادر التي ترجمت لشاعرنا ابن جَبَلة شيئاً كثيراً عن أُسرته خلا أنه من أهل بغداد، وأن له ولداً يُدعى الحسن وبه كان يُكنَّى[1].

يكاد يجمع القدماء على أن شاعرنا ابن جَبَلة توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين،بيد أنهم يختلفون في سبب وفاته، فمنهم من يذهب إلى أنه مات حَتْفَ أَنفِه[2]، ومنهم من يقول إن المأمون هو الذي قتله؛ لأنه رآه يبالغ في مدح أبي دُلَف بن عيسى العِجْليّ [3]، وحُمَيْد بن عبدالحَميد الطُّوسيّ[4]، ويخلع عليهما صفات الله جلَّ وعلا[5].

ولعلَّ المأمون تحامى شاعرنا ابن جَبَلة وجفاه وضيَّق عليه لأسباب سياسيَّة فضلاً عن الأسباب الدينيَّة، فقد كانت أُسرة ابن جَبَلة مواليةً للأمين في حربه مع أخيه المأمون على الخلافة، كما كان عبدالرحمن بن جَبَلة من كبار قادة الأمين، ومازال على وفائه له حتى قُتل بأسداباذ سنة خمس وتسعين ومائة، وهو يحارب عبدالله بن طاهر[6] أكبر قادة المأمون. فضلاً

(1) الأغاني 100/18، وانظر: بقية مصادر ترجمته في الصفحة السابقة.

(2) طبقات ابن المعتز ص173، والأغاني 101/18.

(3) أبو دُلَف العِجْليُّ : (... - 226هـ،... – 840م) القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل، من بني عِجْل ابن لُجَيْم: أمير الكرج، وسيِّد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان الشعراء، قلَّده الرشيد العباسيُّ أعمال (الجبل) ثم كان من قادة جيش المأمون. وأخبار أدبه وشجاعته كثيرة، وللشعراء فيه أماديح، وله مؤلفات، منها (سياسة الملوك) و (البزاة والصيد). وهو من العلماء بصناعة الغناء، يقول الشعر ويُلحِّنه، توفي ببغداد. (الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، ط14، 1999م، 179/5)، وانظر في أخبار أبي دُلف: الأغاني طبعة دار الكتب المصرية 248/8، ووفيات الأعيان طبعة دار الكتب العلمية- بيروت، 501/3، وسمط اللآلئ 331/1، وتاريخ الأدب العربي لعمر فرَّوخ (الأعصر العباسيَّة) ص233.

(4) حُمَيْد الطُّوسيُّ: (... - 210هـ -... – 825م)، من كبار قُوَّاد المأمون العباسيّ، كان جبَّاراً، فيه قوة وبطش، وكان المأمون يندبه للمهمات. (الأعلام للزركلي 283/2).

(5) مرآة الجنان لليافعي 53/2، ونكت الهميان، ص210.

(6) عبدالله بن طاهر (182 – 230هـ، 798 – 844م): عبدالله بن طاهر بن الحُسين بن مُصعب بن زُرَيْق الخزاعيُّ بالولاء، أبوالعباس: أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسيّ، أصله من (باذغيس) بخراسان كان جَدُّه الأعلى (زُرَيْق) من موالي طلحة الطلحات، ولي إمرة الشام مدة ونُقل إلى مصر سنة 211هـ، فأقام سنة، ونُقل إلى الدينور ثم ولَّاه المأمون خراسان، وظهرت كفاءته، فكانت له طبرستان =وكرمان، وخراسان والري والسواد، وما يتصل بتلك الأطراف. واستمر إلى أن توفي بنيسابور (وقيل: بمرو) وللمؤرخين إعجابٌ بأعماله وثناءٌ عليه. (الأعلام للزركلي 93/4 -94).

عن ذلك فقد كان أبو دُلف العِجْليُّ من قادة الأمين المشهورين، ثم إنه وقف موقفاً مُحايداً لم يُظاهر معه أحدهما على أخيه[1].

ثانياً: شعره:

ذكرت المصادر التي ترجمت لشاعرنا ابن جَبَلة وروت له شعراً أنه شاعر مطبوع، عذب اللفظ جَزْلُه، لطيف المعاني، مَدَّاح حسن التصرُّف[2]. كان دقيق الفطنة سهل الكلام، مَدَّاحاً مجيداً، وصَّافاً مُحسناً، سارت له أمثال، ونَدرتْ من شعره نوادر، وقال الجاحظ عنه: كان أحسنَ خَلْقِ الله إنشاداً، وما رأيتُ مِثْلَه بَدويّاً ولا حَضريّاً[3].

وتذكر مصادر أخرى أنه كان أحد فحول الشعراء المُبرزين[4]، كان شاعراً مطبقاً فصيحاً بليغاً[5].

أما موضوعات شعره فيتصدرها المدح، وأشهر ممدوحيه حُمَيْدٌ الطُّوسيُّ الطائيُّ وأبو دُلف العِجْليُّ، وعبدالله بن طاهر، وهم من عُمَّال المأمون وقادته المذكورين، والحسن بن سهل وزير المأمون[6].

مدح ابن جَبَلة حُمَيْداً الطُّوسيَّ بالكرم والجود الفيَّاض، وعَراقة الأصل، والحزم والشدة والثبات والبطش بالأعداء، مُبدئاً مُعيداً في تلك الصفات في أسلوب صاف ومعنىً مبتكر طريف، وصورة نادرة، من ذلك قوله:

دِجْلَـــةُ تَسْـــقي وَأَبـــو غَـــانِمٍ ** يُطْعِـــمُ مَـــنْ تَسْـــقي مِـــنَ النَّـــاسِ

أَعَـــدَّ لِلمَعْـــروفِ أَموالَـــهُ ** وَسَـــيْفُهُ فـــي حَلْبَـــةِ البـــاسِ

وَالنَّـــاسُ جِسْـــمٌ وَإِمـــامُ الهُـــدى ** رَأْسٌ وَأَنْـــتَ العَـــيْنُ فـــي الـــرَّأْسِ[7]

ومدائحه في أبي دُلف العِجْليّ لا تقل مكانة عن مدائحه في حُمَيْد الطُّوسيّ فقد أشاد بممدوحه أبي دُلف ذاكراً نائلَه الغَمْر، وحلمه وبسالته ونباهة نسبه، وقسمته أيامه بين الجهاد

(1) انظر: شعر ابن جَبَلة، ص12 (بتصرف)، وانظر: تاريخ الطبري 798/11، 804، 826، 831.

(2) الأغاني 100/18.

(3) تاريخ بغداد 359/11، وانظر: نكت الهميان ص209.

(4) مرآة الجنان 53/2.

(5) البداية والنهاية 267/10.

(6) شعر ابن جَبَلة ص13.

(7) شعر ابن جَبَلة، ص13، 74.

ومجالس العلم والأدب، ونهوضه لقتال العابثين المفسدين. وأشهر مدائحه في أبي دلف رائيته التي قرَّظها ابن المعتز[1]، وأبو الفرج الأصفهانيُّ[2]، ومن بديع قوله فيها[3]:

إِنَّمـــا الـــدُّنيا أَبـــو دُلَـــفٍ ** بَـــيْنَ مَغْـــزَاهُ وَمُحْتَضَـــرِهْ
فَـــإِذا ولَّـــى أَبـــو دُلَـــفٍ ** وَلَّـــتِ الـــدُّنيا عَلـــى أَثَـــرِهْ
كُـــلُّ مَـــنْ فـــي الأَرْضِ مِـــنْ عَـــرَبٍ ** بَـــيْنَ باديـــهِ إِلـــى حَضَـــرِهْ
مُسْـــتَعِيرٌ مِنْـــكَ مَكْرُمَـــةً ** يَكْتَســـيها يَـــوْمَ مُفْتَخَـــرِهْ

حاول شاعرنا ابن جَبَلة مدح الملوك، ففي أخباره أنه امتدح الرشيد بقصيدة والأصمعيُّ بحضرته، فاستحسنها الرشيد وأُعجب بها، وأجزل له العطاء عليها[4].

ونظم مِدحةً في المأمون، ولكن الأخير سخط عليه وبرم به؛ لأن ابن جَبَلة مدح ونوَّه بأبي دُلف العِجْليّ وحُمَيْد الطُّوسيّ، تنويهاً طارت شهرته في الآفاق، على حين تأخَّر عن مدحه والإشادة به[5].

ومهما يكن من أمر فَقَدَ ابنُ جَبَلة مفاتيحَ أبوابِ الخلفاء، وأُوصدتْ أبوابُهم من دونه، فقد توفي الرشيد في مطلع حياة ابن جَبَلة، أمَّا المأمون فأعرض عنه وحقد عليه[6].

ثاني موضوعات شعره الرثاء، فكان بارعاً فيه ولاسيما مرثيته في حُمَيْد الطُّوسيّ التي قرَّظها أبو الفرج الأصفهانيُّ ذاكراً جودتها وكثرة نادرتها[7]، ومنها قوله[8]:

أُصِـــبْنا بِيَـــوْمٍ فـــي حُمَيْـــد لَـــو أَنَّـــهُ ** أَصَـــابَ عَـــرُوشَ الـــدَّهْرِ ظَلَّـــتْ تَضَعْضَـــعُ
هَـــوى جَبَـــلُ الـــدُّنيا المَنيـــعُ وَغَيْثُهـــا ال ** مَريـــــعُ وَحاميهـــــا الكَمِـــيُّ المُشَـــيَّعُ
وَسَـــيفُ أَميـــرِ المُـــؤمِنينَ وَرُمْحُـــهُ ** ومِفْتـــاحُ بـــابِ الخَطْـــبِ وَالخَطْـــبُ أَفْظَـــعُ

(1) طبقات ابن المعتز، ص171.
(2) الأغاني 254/8.
(3) شعر ابن جَبَلة، ص14، 68.
(4) سمط اللآلئ 330/1.
(5) الأغاني 105/18، والطبري 1153/11.
(6) شعر ابن جَبَلة، ص11 (بتصرف).
(7) الأغاني 108/18.
(8) شعر ابن جبلة، ص14، 82.

ثالث موضوعات شعره الهجاء، ويأخذ عنده شكل المقطوعة القصيرة مماثلاً له عند الشعراء العباسيين الذين تطوروا بهذا الفن، ويراوح في بعضه بين السخرية والتهكم تارة، والإقذاع تارة أخرى[1].

ومن موضوعات شعره الغزل فحيناً يأتي في مستهل مدائحه مُجدِّداً في معانيه وأسلوبه، وحيناً آخر يتخذ شكل المقطوعة المستقلة عن غيرها من الموضوعات، يُصوِّر الشاعر هُيامه ووَجْدَه دون إسفاف أو تدن[2].

طرق شاعرنا ابنُ جَبَلة جُلَّ موضوعات الشعر كالاعتذار والعتاب والوصف. ففي الاعتذار والعتاب يستلهم عقله الخصب، وذهنه الثاقب، لاستلال الحقد من نفس صاحبه عليه كقوله يُعاتب أبا دُلفَ العِجْليَّ، ويعتذر إليه، وقد استشفع عنده صديقه حُمَيْدٌ الطُّوسيُّ:

لا تَتْرُكَنَّـــي بِبـــابِ الـــدَّارِمُطَّرَحـــاً ** فَـــالحُرُّلَـــيْسَ عَـــنِ الأَحْـــرارِيَحْتَجِـــبُ

هَبْنـــا بِـــلا شَـــافِعٍ جِئْنـــا وَلا سَـــبَبٍ ** أَلَسْـــتَ أَنْـــتَ إِلـــى مَعروفِـــكَ السَّـــبَبُ[3]

وصف ابن جَبَلة عدة موصوفات كالطيف والغيث وغيرهما من الموصوفات، محاولاً الإلمام بالمعنى المبتدع والفكرة الجديدة، بقوله يصف الطيف[4]:

بِـــأَبي مَـــنْ زَارَنـــي مُكْتَتِمـــاً ** حَـــذِراً مِـــنْ كُـــلِّ واشٍ جَزِعـــا

زَائِـــراً نَـــمَّ عَلَيـــهِ حُسْـــنُهُ ** كَيـــفَ يُخْفـــي اللَّيْـــلُ بَـــدْراً طَلَعـــا

أسلوب شاعرنا ابن جَبَلة يتراوح بين السهولة والجزالة، إذ ينتخب في الغالب لقصائده ألفاظاً قريبة المعاني، ويصوغها في عبارة واضحة مستقيمة لا التواء فيها إلا في القليل النادر... ومع سهولة عبارته لا يستخدم الألفاظ العامية والعبارات الشعبية، بل يرتفع دائماً عنها، ويحرص على اللغة الفصيحة والأساليب الناصعة المتينة.

أما ديوان شاعرنا ابن جَبَلة فلم يصل إلينا، ونهض الدكتور حُسين عطوان بتحقيق ما بقي من شعره متناثراً بين مصادر الأدب والتاريخ قائلاً: (... ثم رأيتُ أن أجمع شعر علي بن جَبَلة. وقبل أن أبدأ في جمعه أخذتُ أسأل وأبحث عن مخطوطة ديوانه، لأن ابن النديم يذكر في الفهرست أنه كان له ديوان من مائة وخمسين ورقة، ظل متداولاً بين العلماء إلى نهاية القرن

(1) شعر ابن جبلة، ص15.

(2) نفسه، ص15، 16.

(3) نفسه، ص16.

(4) نفسه، ص 17، 76.

الحادي عشر الهجريّ، فإن عبدالقادر البغداديَّ نصَّ في مقدمة خزانة الأدب على أنه رآه واعتمد عليه. وحين توثقتُ من أن مخطوطة ديوانه مفقودة، مضيتُ أجمع ما بقي من شعره من المصادر والمظان المطبوعة والمخطوطة... ولم أزل أجمع ما أعثر عليه من شعره حتى اطمأننتُ إلى أنني ظفرتُ بأكثر ما حفظ منه)[1].

المبحث الأول

مقدمة القصيدة

كَلِفَ النقاد الأقدمون بجودة مطلع القصيدة وحثوا الشعراء على تجويد مطالع قصائدهم، وإذا كان الابتداء حسناً بديعاً، ومليحاً رشيقاً، كان داعية إلى الاستماع لما يجئ بعده من الكلام[2].

والشعرُ قُفْلٌ أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يُجوِّد ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع...، وليجعله حلواً سهلاً، وفخماً جزيلاً...[3].

أما شاعرنا ابن جَبَلة فقد أَلمَّ بضروب من المقدمات في شعره كمقدمة وصف الشيب وبكاء الشباب، والمقدمة الغزلية، والعتاب، والطللية، ووصف الطبيعة، والخمر.

أ- مقدمة وصف الشيب وبكاء الشباب:

أرسى المُعمَّرون من الشعراء أصول هذه المقدمة، وألموا بأكثر عناصرها غير أن أشعارهم التي تفجَّعوا فيها على شبابهم لم تكن مقدمات لقصائد طويلة، بل مقطوعات نفثوا فيها آلامهم وتمثلوا ذكرياتهم. ويبدو أن الشعراء أُعجبوا بالمعاني التي رددها المُعمَّرون، أو أنها انسجمت مع واقع حياة نفر منهم بلغوا من العمر عتياً، ومروا بالتجربة نفسها، فأخذوا يرددونها في صدور قصائدهم، ثم ينفذون منها إلى موضوعاتهم وأغراضهم الأساسية[4].

ولعلَّ شاعرنا ابن جَبَلة من الذين أُعجبوا بالمعاني التي رددها المعمَّرون فما فتئ يستهل غير قصيدة من شعره بوصف الشيب، ذاكراً نزوله برأسه وازورار الحِسان عنه، وأنه لم يَرَ وقاراً يُكْره كالشيب، وظلّاً يُستلب كالشباب الغض، مُسْهِباً في وصف ذلكم الشباب ونضارته،

(1) شعر ابن جبلة، ص6.

(2) الصناعتين، ص437.

(3) العمدة 218/1.

(4) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي لحسين عطوان، ص49.

فقد كان صاحباً عزيز المصطحب، رغم أنه جعله يزهو تيهاً بجماله غير آبه لحوادث الدهر ونوازله قائلاً[1]:

رِبِعَـــتْ لِمَنْشُـــورِعَلَـــى مَفْرِقِـــهِ * ذَمَّ لَهـــا عَهْـــدَ الصِّـــباحِينَ انتَسَـــبْ

أَهْـــدَامُ شَـــيْبٍ جُـــدُدٌ فـــي رَأسِـــهِ * مَكروهَـــةُ الجِـــدَّةِ أَنْضَـــاءُ العُقُـــبْ

لَـــم أَرَكَالشَّـــيْبِ وَقـــاراً يُجْتَـــوى * وَكَالشَّـــبابِ الغَـــضِّ ظِـــلّاً يُسْـــتَلَبْ

فَنـــازِلٌ لَـــم يُبْـــتَهَجْ بِقُرْبِـــهِ * وَذاهِـــبٌ أَبقـــى جَـــوىً حِـــينَ ذَهَـــبْ

كـــانَ الشَّـــبابُ لِمَّـــةً أُزهـــى بِهـــا * وَصـــاحِباً حُـــرّاً عَزيـــزَ المُصْـــطَحَبْ

وثمة مقدمة أخرى وصف فيها شاعرنا ابن جَبَلة الشيب، مُلمّاً بقسمات الصورة الأولى، كيف لا وقد تحامته عيون الحِسان، جافياً طرب الفتيان،غير أن الشاعر أقرَّ غير مرة بأن الشيب يعني اكتمال العقل والحكمة، وأَنْعِمْ به من واعظ، يقول[2]:

جَفـــا طَـــرَبَ الفِتْيـــانِ وَهـــوَ طَـــروبُ * وَأَعْقَبَـــهُ قُـــرْبَ الشَّـــبابِ مَشـــيبُ

تَجافَـــتْ عُيـــونُ البِـــيضِ عَنْـــهُ وَرُبَّمـــا * مَـــدَدْنَ إِليـــهِ الوَصْـــلَ وَهـــوَ حَبيـــبُ

لَعَمْـري لَـنِعمَ الصاحِبُ الشَّـيبُ واعِظـاً * وإِنْ كـــانَ مِنْـــهُ لِلعُيـــونِ نُكـــوبُ

خَلـــيطُ نُهـــىً مُنتـــابُ حِلْـــمٍ وَإِنَّـــهُ * عَلـــى ذاكَ مَكْـــروهُ الخِـــلاطِ مُرِيـــبُ

أجود ما استهل به شاعرنا ابن جَبَلة قصائده وصفه الشيب وبكاؤه الشباب في أجود قصائده التي مدح بها أبا دُلفَ العِجْليَّ (ذَاد وزْدُ الغيّ عَنْ صَدَرِهْ) ففي تلك القصيدة ذهبت نفس الشاعر حسرات على شباب مضى، ناعتاً إياه وقد تصَرَّمت أيامه، وذوى اليانع من ثمره، لمَّا كانت له صولات وجولات بين الفتيات النافرات. بيد أن الحسرات المتتابعات لا تُجدي نفعاً في استرجاع شباب مضى فقد احدودب الظهر كِبَراً، يقول[3]:

ذادَ وِرْدُ الغَـــيِّ عَـــنْ صَـــدَرِهْ ** وَارْعَـــوى وَاللَّهْـــوُ مِـــنْ وَطَـــرِهْ

وَأَبَـــتْ إِلَّا الوَقـــارَلَـــهُ ** ضَـــحِكاتُ الشَّـــيْبِ فـــي شَـــعَرِهْ

(1) شعر ابن جَبَلة، ص32-33.

(2) نفسه، ص44.

(3) نفسه، ص65-66.

نَـــدَمي أَنَّ الشَـــبَّابَ مَضـــى ** لَـــم أُبَلِّغْـــهُ مَـــدى أَشَـــرِهْ
جَارتـــا لـــيس الشَّـــبَابُ لِمَـــنْ ** رَاحَ مَحْنِيّـــاً عَلَـــى كِبَـــرِهْ
وَ انْقَضَـــتْ أَيَّامُـــهُ سَـــلَماً ** لَـــم أَهِـــجْ حَربـــاً عَلـــى غِيَـــرِه

ما انفك ابن جَبَلة يصف الشَّيْبَ في مُفتتح قصائده، قائلاً[1]:

رَاعَـهُ الشَّـيْبُ إِذْ نَـزَلْ ** وَكَفَـاهُ مِـنَ العَـذَلْ
وَ انْقَضَتْ مُدَّةُ الصِّبا ** و انْقَضى اللَّهْوَ وَالغَزَلْ
قَـدْ لَعَمْـري دَمَلْتُـهُ ** بِخِضـابٍ فَمـا انْـدَمَلْ
فَابكِ للشَّـيْبِ إِذْ بَـدا ** لا عَلَى الرَّبْـعِ وَالطَّلَـلْ

راع الشيبُ شاعرنا ابنَ جَبَلة لمَّا وخط رأسه، منذراً إياه بانقضاء الصِّبا وعُنْفُوان الشباب، فقد أزف وقت اللهو والغزل، محاولاً تغيير ذلك الشيب بالخضاب ونحوه، بيد أن الشيب يأبى. فقمين بالمرءِ أن يبكي على شيب جلَّل الرأس، لا على ربع خلا وطلل درس. ولعل ابن جَبَلة خالف في هذا المقام ما اعتاده الشاعر القديم من وصف الأطلال وبكاء الديار.

وآخر مقدمات وصف الشيب وبكاء الشباب قول شاعرنا ابن جَبَلة[2]:

جَـلالُ مَشـيبٍ نَـزَلْ ** و أُنْـسُ شَـبابٍ رَحَـلْ
طَوى صَاحِبٌ صَاحِباً ** كَـذاكَ اخْـتِلافُ الـدُّوَلْ
كَـأَنَّ حُسـورَالصِّـبا ** عَنِ الشَّيْبِ حِينَ اشْتَعَلْ
زُهَـا أَمَـلٍ مُونِـقٍ ** أَطَـلَّ عَلَيـهِ أَجَـلْ
بَـدَا بَـدَلاً بِالشَّـبا ** بِ لَيْـتَ الشَّـبابَ البَـدَلْ
جَـلالٌ وَلكِنَّـهُ ** تَحَامَـاهُ حُـورُالمُقَـلْ

بدا ابن جَبَلة متنازعاً بين جلال الشيب وأُنس الشباب، ففي الأول الحكمة والعظة والوقار، رغم ازورار الحِسان، وفي الثاني زهو لافتٌ لحُور المُقَل. وحاول ابن جبلة جاهداً أن يُعزّي نفسه عن رحيل الشباب ومُقام المشيب.

(1) شعر ابن جَبَلة، ص89.
(2) نفسه، ص90.

وهكذا تبدو صور وصف الشيب وبكاء الشباب عند شاعرنا ابن جَبَلة متشابهة في قسماتها وإطارها العام، صورة فحواها وصف الشيب وما يتبعه من ضعف وكبر، ونِفار الجِسان عن صاحبه، رغم ما فيه من الجلال والوقار. أما الشباب فقد نعته الشاعر بالعنفوان والزهو، واستمالة قلوب الحَسان، وإن تصرَّمت أيامه عَجْلَى.

(ب) المقدمة الغزلية:

في شعر ابن جَبَلة بضع مقدمات غزليَّة كقوله في مستهل قصيدة مدح بها حُمَيْداً الطُّوسيَّ[1]:

أَبَيْتَ فَما تُسْعِفُ ** وَجُرْتَ فَما تَنْصِفُ
وَتَحْلِفُ لي بِالهَوى ** وَتَنْكُثُ مَا تَحْلِفُ
حِبالُكَ مُنْحَلَّةٌ ** وَوُدُّكَ مُستَطْرَفُ
وَتَهْجُرُني و اثِقاً ** فَثِقْ فَأَنا المُدْنَفُ

خاطب شاعرنا ابن جَبَلة المحبوبة بضمير المذكر، ذاكراً صدودها وهجرانها، تبذل الوعد تارة وتُخلفه أخرى، ناعتاً ودَّها المستطرف، وتعلَّقه بحِبال وَصْلها، وحُبّها المستكين في دواخله ملمًّا بشيء من وصفها الحسيِّ من ثقل وهيف.

والصدود سمة تلازم محبوبة شاعرنا ابن جَبَلة فكم تقيأت إساءة بحقِّه، ولكنها مليحة عنده، وكم استعطفها دون أن ترقَّ له، يقول[2]:

تُسيءُ وَلا تَسْتَنْكِرُ السُّوءَ إِنَّها ** تُدِلُ بِما تَبْلُوهُ عِنْدي وَتَعْرِفُ
فَمِنْ أَيْنَ ما اسْتَعْطَفتُها لا تَرِقُّ لي ** ومِنْ أَيْنَ ما جَرَّبْتُ صَبْرِيَ يَضْعُفُ

وثمة مقدمة غزلية حلَّق فيها شاعرنا ابن جَبَلة بعيداً عن الدنيات والماديات مصوّراً هُيامه بصاحبته وتعلُّقه بها، وما يُقاسي من المواجد والآلام لبُعدها، وحين يسمع الناس يهتفون باسمها حتى لتكاد نفسه تتفطَّر حسرةً عليها، ولعلَّ هذا الجانب يميزه عن كثير من شعراء عصره الذين تدنوا في غزلهم، ومجونهم مع الجواري والقيان[3].

(1) شعر ابن جَبَلة، ص89.

(2) نفسه، ص85.

(3) نفسه، ص16.

يقول ابن جَبَلة[1]:

لَو أَنَّ لي صَبْرَها أَو عِندَها جَزَعي ** لَكُنْتُ أَعْلَمُ ما آتي وَما أَدَعُ

لا أَحْمِلُ اللَّوْمَ فيها وَالغَرَامَ بِها ** ما حَمَّلَ اللَّهُ نَفْساً فَوْقَ ما تَسَعُ

إِذا دَعا باسمِها داعٍ فَأَسْمَعَني ** كادَتْ لَهُ شُعْبَةٌ مِنْ مُهْجَتي تَقَعُ

وهذه المقدمات الغزلية آنفة الذكر ألمَّت بغير قليل من حق النَّسيب الذي ذكره ابن رشيق القيروانيُّ: (... أن يكون حُلو الألفاظ، رَسْلها، قريب المعاني، سهلاً غير كزٍّ ولا غامض،... ظاهر المعنى،... شفَّاف الجوهر)[2].

واستمع إليه يصف طول غرامه بصاحبته (شَكْلة) حتَّى إنه ليرضى إذا ابتعدتْ منه، وصدَّتْ عنه أن ينظر إلى وَرْدَة تماثلها في حُسنها وجمالها، وحتى ليزداد تعلُّقاً بها كلما مَطلتْه ونأتْ بجانبها عنه، ويسعد بها كلما أمعن العُذَّال في ذمِّها، يقول[3]:

إِنَّي لَيُقْنِعُني تَعَهُّدُ شَكْلَةٍ ** إِنْ حَالَ دُونَ لِقاءِ شَكْلَةَ حَائِلُ

وَيَزيدُني كَلَفاً بِها هِجرانُها ** وَيَسرُّني عَنْها الحَدِيثُ الباطِلُ

وَإِذا تَكَلَّمَ عَاذِلٌ في حُبِّها ** أَغْرَى الفُؤادَ بِها وَرَقَّ العَاذِلُ

ومهما يكن من شيء، بدت المقدمات الغزلية عند شاعرنا ابن جَبَلة مُفعمة بالهُيام تارة، والرقة والعذوبة تارة أخرى، بعيدة عن الإسفاف والتدنّي. موافقاً بذلك ما ذكره ابن رشيق القيروانيُّ في نسيب أهل الحاضرة: (... أكثر تغزلهم في ذكر الصدود والهجران، والواشين والرقباء، ومنعة الحرس والأبواب) [4].

(ج) مقدمة الاعتذاروالعتاب:

دقَّق شاعرنا ابن جَبَلة في الاعتذار والعتاب، مائلاً إلى الحِجَاج والمنطق فيهما، مستلهماً عقله الخصب، وذهنه الثاقب، لاستلال الحقد من نفس صاحبه عليه، وتجديد ما بينهما من

(1) شعر ابن جبلة، ص78.

(2) العمدة 116/2.

(3) شعر ابن جَبَلة، ص16، 97.

(4) العمدة 225/1.

المحبة والأُلفة، كقوله يعاتب أبا دُلف العِجْليَّ، ويعتذر إليه، وقد استشفع له عنده صديقه حُمَيْدٌ الطُّوسيُّ[1].

لا تَتْرُكَنِّي بِبابِ الدَّارِ مُطَّرَحاً ** فَالحُرُّ لَيْسَ عَنِ الأَحْرَارِ يَحْتَجِبُ

هَبْنا بِلا شَافِعٍ جِئْنَا وَلا سَبَبٍ ** أَلَسْتَ أَنْتَ إِلى مَعروفِكَ السَّبَبُ

وهو اعتذار يستوحي فيه حِسَّه المُرْهَف، وحُجَّته البيِّنة اللطيفة مما جعل أبا دُلف يرضى عنه ويصله[2].

أظهر ابن جَبَلة في اعتذاره غير قليل من الوقار والعِزَّة والكرامة مع أعظم رجال الدولة، ذاكراً صبره ورباطة جأشه، مُهدِّداً بالقطيعة والجفوة، يظهر ذلك جليّاً في قوله مُعاتباً الحسن بن سهل وقد احتجب عنه[3]:

أَليَأسُ عِزٌّ وَالذِّلَّةُ الطَمَعُ ** يَضِيقُ أَمْرٌ يَوْماً وَيَتَّسِعُ

أَحَقُّ شَيءٍ بِطُولِ مَهْجَرَةٍ ** مَنْ لَيْسَ فيهِ رِيٌّ وَلا شِبَعُ

قُلْ لابنِ سَهْلٍ فَإِنَّني رَجُلٌ ** إِنْ لَمْ تَدَعْني فَإِنَّني أَدَعُ

أَليَأسُ مالي وَجُنَّتي كَرَمٌ ** وَالصَّبْرُ والٍ عَلَيَّ لا الجَزَعُ

وذا عتاب استهل به شاعرنا ابن جَبَلة مدحه في حُمَيْد الطُّوسيّ، عاتباً عليه تَبدَّله، لمَّا وجد برَّه قليلاً، غير آبه له، معدِّداً أسباب الودِّ بينه والممدوح، واعداً إياه بأن يظل حافظاً للودِّ والعهد، ثم دلف بعد ذلك مادحاً حُمَيْداً الطُّوسيَّ قائلاً[4]:

بِأَبي مالَكَ عَنِّي ** مائِلَ الطَّرْفِ كَليلا

وَأَرى بِرَّكَ نَزْراً ** وَتَحفِّيكَ قَليلا

وَتُسَمِّيني عَدُوّاً ** وَأُسَمِّيكَ خَليلا

ثِقْ بودٍّ لَيسَ يَفْنَى ** وَبِعَهْدٍ لَنْ يَحُولا

جَعَلَ اللَّهُ حُمَيْداً ** لِبَني الدُّنيا كَفيلا

(د) المقدمة الطلليَّة:

(1) شعر ابن جَبَلة، ص16، 45.

(2) انظر: الأغاني 113/18.

(3) شعر ابن جَبَلة، ص17، 79.

(4) نفسه، ص 93.

أَلمَّ شاعرنا ابن جَبَلة بوصف الأطلال في مستهل قصيدة واحدة مدح بها حُمَيْداً الطُّوسيَّ في يوم نَيْروز، قائلاً[1]:

دِمَــنُ الــدَّارِدُثُــورُ ** لَــيْسَ فــيهِنَّ مُجِيــرُ
بَلِيَــتْ مِنْهــا المَغــاني ** مِثْلَمــا تَبلْى السُّــطورُ
قَسَــمَ البَــيْنَ عَلَيْهــ ** نَّ رَواحٌ وَبُكــــــــورُ
فَطَوَتْ أَخْبِيَةَ الحَيّ ** كَمــا يُطْــوى الحَبِيــرُ
فَاســتَجَرَّتْهُم فَــدَوَّتْ ** مِــنْ نَــوى البَيْنِ جَــرورُ
وَبِعَيْنَيْكَ حُمــولُ الْ ** حيّ وَالبَــيْنُ الشَّــطِيرُ
كَذُرا النَّخْلِ أَشَاعَتْ ** زَهْوَهــا الــرّيحُ الــدَّبورُ
خُلِّفَــتْ بِالــدَّارِحُــورٌ ** وَغَدَتْ فِي الظَّعْنِ حُورُ

أقفرت الديار بعد أن تركها أهلها، فلا تجد مُجيباً فيها، وقد بَلِيتْ منازلُها لمَّا تقادم عليها الزمان، مشبهاً إياها بالسطور، ثم هبَّت عليها رياح الصباح والمساء طامسة آثارها. وحين أصاب المكان جَدْبٌ وشدةٌ ارتحل أهله طاوين خيامهم كطي الثوب، وقد بدت للعين هوادج تحمل نساءً حِساناً. وصورة وصف الطلل مألوفة مكررة عند جُلِّ الشعراء، بيد أن ابن جَبَلة لم يذكر المواضع التي ألف الشعراء ذكرها واجترار ماضيها. وهذا يدل على أن المقدمة الطلليَّة عند شاعر حضري كابن جَبَلة تقليدٌ فنِّيٌّ صِرْف لا حظَّ للتجربة الحقيقية فيه.

ويرى الطاهر أحمد مكيّ أن المقدمة الطلليَّة نابعة من الحنين إلى الوطن، ففي حياة الفرد العربيّ وطنٌ متجدد متغير، وفي تذكره لأحداث الماضي تلذذ وعزاء وسلوى. والبكاء على الأطلال ثمرة البيئة المتنقلة[2].

(هـ) مقدمة وصف الطبيعة:

وصف شاعرنا ابن جَبَلة الغيث مصوراً إياه تصويراً بديعاً، بيَّن فيه كيف التفَّ السحاب الداكن من حوله، وكأنه يكتسي ثياباً رمادية، وكيف حار في السماء فإذا هو معلَّق بها،

(1) شعر ابن جبلة، ص 58 – 59.

(2) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، د.الطاهر أحمد مكيّ ص260-261 (بتصرف).

تميل الرياح نحو اليمين، ونحو الشمال، وما تزال به حتى يدنو من الأرض. وهو غيث يزخر بالماء، وتجود الأرض بخيراته الواسعة التي تخصب معها وتمرع، يقول[1]:

وَغَيْـــثٍ تَأَلَّفَـــهُ نَـــوْؤُهُ ** فَأَلْبَسَـــهُ غَلَـــلاً أَرْبَـــدا

تَظَـلُّ الرِّيـاحُ تَهـادى بِـهِ ** إذا مـــا تَحَيَّـــرَ أَو عَـــرَّدا

صَدوقُ المَخيلَةِ داني الظِلّا ** لِ قَدْ وَعَدَ الأَرْضَ أَن تَرْغَدا

أجل، أكثر الشعراء من وصف الطبيعة في مستهل قصائدهم متحركة تارة وساكنة تارة أخرى، ولكن شاعرنا ابن جَبَلة – في شعره الذي وصل إلينا – ألمَّ بوصفها في موضع واحد (وغيث... الأبيات) وربما سقط شعره في وصف الطبيعة من يد الزمان.

(و) مقدمة وصف الخمر:

في شعر ابن جَبَلة وصف للخمر في مستهل مِدحة خصَّ بها حُمَيْداً الطُّوسيَّ، فيها المعنى الطريف والصورة النادرة، مُعلِّلاً عكوفه على الخمر وانغماسه فيها، قائلاً[2]:

عَلِّلاني بِصَفْوِ ما في الدِّنانِ ** و اتْرُكا مـا يَقولُـهُ العَـاذِلانِ

واسـبِقا فَـاجِعَ المَنِيَّةِ بِالعَيْـ ** ـشِ فَكُلٌّ عَلى الجَدِيْدَيْنِ فاني

عَلِّلاني بشَـرْبةٍ تُـذْهِبُ الهَـ ** ـمَّ وتَنْفـي طَــوارِقَ الأَحْــزَانِ

وَكُـؤوسٌ تَجْري بِمـاءِ كُـرومٍ ** وَمَطِيُّ الكُؤوسِ أَيدي القِيانِ

زعم ابن جَبَلة بأنه يشرب الخمر، ويحضر مجالس اللهو، ويستمع إلى الغناء تخفُّفاً من ثقال الحياة، وخطوب الزمان، واغتناماً للسوانح وهو في ريعان الشباب قبل الشيخوخة والهلاك. وزعم ابن جَبَلة يُفنِّده أبو العلاء المعريُّ وهو يُنصف الخمر ذمّاً، قائلاً: "لُعِنتْ القَهْوةُ، فلم تهبط بها رَهْوة، لا خير في الخمر، توطئ على مثل الجمر، من اصطبح فَيْهجاً، فقد سلك إلى الداهية منهجاً، من اغتبق أُمَّ ليلى، فقد سحب في الباطل ذَيْلاً..."[3].

(1) شعر ابن جبلة، ص 18، 48.

(2) شعر ابن جَبَلة، ص 19 – 20، 112 – 113.

(3) رسالة الغفران، أبو العلاء المعريّ، بتحقيق محمد عِزَّت نصرالله، ص290.

وأفضل من ذلك كُلّه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾[1].

آراء النقاد الأقدمين في المقدمات:

في مصادر النقد القديم فصول كثيرة، طويلة وقصيرة، تحدث فيها الأقدمون عن افتتاحات القصائد يغلب على مادتها أنها مكررة، عُنوا فيها بمطالع القصائد لا بمقدماتها، وهي ملاحظات تارة ونصائح تارة أخرى، وقد ذكرتُ شيئاً يسيراً من تلكم الملاحظات والنصائح في مستهل الحديث عن المقدمات[2].

آراء النقاد المحدثين في المقدمات:

كَلِف النقاد المحدثون من العرب والمستشرقين بدراسة ظاهرة المقدمات في القصيدة العربية، فهذا المستشرق الألمانيُّ (فالتر براونة) الذي جعل المقدمة الطللية تعبيراً عن مصير الإنسان وموقفه من مُعمَّيات الحياة، وعناصر الكون من فَناء وبقاء[3].

أما يوسف خُليف فقد ردَّ المقدمات جميعاً إلى فكرة الفراغ في المجتمع الجاهليّ الرعويّ، وأنها كانت الفرصة الوحيدة التي أُتيحت للشعراء كي يعبروا عن أنفسهم[4].

ويرى الدكتور حسين عطوان أن المقدمات جميعاً لا تعدو أن تكون ذكريات وضرباً من الحنين إلى الماضي والنزاع إليه... فإن المقدمات ثمرة البيئة التي درج الشعراء على أرضها وألفوا نمط حياتها[5].

---

(1) سورة البقرة الآية 219.

(2) انظر على سبيل المثال لا الحصر: الصناعتين ص437، والعمدة 218/1، 219، 221، 222، وعيار الشعر، ص 126، 127.

(3) انظر: مقالته الموسومة (الوجودية في الجاهلية) في مجلة المعرفة السورية، السنة الثانية، العدد الرابع، يونيو 1963م، ص156-161. (نقلاً عن مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهليّ لحسين عطوان ص159-160).

(4) انظر: دراسة الدكتور يوسف خُليف في مجلة (المجلة) العدد 98، ص16-22، والعدد 110، ص35-44، والعدد 104، عام 1965م، ص4-15. (نقلاً عن مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهليّ، ص160-161).

(5) انظر: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهليّ، ص227-239.

ولعل رأي عطوان أقرب إلى فهم ظاهرة المقدمات في القصيدة العربية فالشاعر لا ينفك يجترُّ ذكريات الماضي، ذاكراً حنينه إليه، مصطحباً البيئة ونمط حياتها.

إنَّ المقدمات قديمها وحديثها كانت تقليداً استغله الشعراء لتصوير حياتهم العاطفية، والفكرية والتعبير عن تأثرهم بها، ومواقفهم منها، كما احتفظوا لها بالحيوية والتجدد[1].

المبحث الثاني

التخلُّص

التخلُّص هو انتقال الشاعر من المقدمة إلى موضوع القصيدة بطريقة بارعة لا يشعر فيها السامع بمفاجأة الانتقال، وهو قسمان:

(أ) التخلُّص الحسن: هو ما ينبغي لكل متكلم من شاعر أو خطيب إذا كان قد أتى بما يصلح من الافتتاحات الحسنة فلا بد من مراعاة التخلُّص الحسن، لأنه لا بد له من تقديم الغزل، أو ذكر الفخر، أو ذكر أطروفة بأدب، ثم يذكر على أثره المدح... [2].

وأولى الشعر بأن يسمى تخلُّصاً ما تخلَّص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره، ثم رجع إلى ما كان فيه[3].

(ب) التخلُّص المفاجئ: كانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها، والوَجْد بفراق ساكنيها، ثم إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر قالت: فدع ذا وسَلِّ الهم عنك بكذا... وربما تركوا المعنى الأول وقالوا: (وعيس أو هوجاء) وما أشبه ذلك[4].

تخلَّص ابن جَبَلة تخلصاً جيِّداً في بعض قصائده المادحة، مُلمّاً بكثير من شروط التخلُّص الحسن، من ذلك تخلُّصه إلى مدح أبي دُلف العِجْليّ بعد أن ابتدر القصيدة بوصف الشَّيْب، ذاكراً المحبوبة، دالفاً إلى غرضه الرئيس، قائلاً[5]:

رِيعَتْ لِمَنْشُورِعَلى مَفْرِقِهِ ** ذَمَّ لَها عَهْدَ الصَّباحِينَ انْتَسَبْ [6]

..... ** .....

(1) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسيّ،الثاني ص399.

(2) كتاب الطراز للعلوي اليمني 179/3.

(3) العمدة 237/1.

(4) الصناعتين، ص452.

(5) شعر ابن جَبَلة، ص32.

(6) نفسه، ص33.

وَأَذْعَرُ الرَّبْرَبَ عِن أَطْفَالِهِ ** بِـــأَعْوَجِيٍّ دُلَفـــيِّ المُنْتَسَـــبْ

فكان تخلّصه سلساً لم يشعر القارئ والسامع بمفاجأة الانتقال من مقدمة القصيدة إلى موضوعها الرئيس.

ومن التخلُّصات الحسنة قول ابن جَبَلة يمدح حُمَيْداً الطُّوسيَّ[1]:

دِمَـــــنُ الـــــدَّارِدُثـــــورُ ** لَـيْسَ فـيهِنَّ مُحِيـرُ [2]

..... ** .....

وَأَزورُ الكاعِـــــبَ الخَـــــوْ ** دَ تُواريهـــا السُّـــتورُ [3]

لِحُمَيْـــــــد وَحُمَيْـــــــدٌ ** قَمَـــرُ الأَرْضِ المُنيـرُ [4]

ويظهر مما تقدم بدءُ القصيدة بوصف الأطلال، وذكر المحبوبة ثم التخلُّص لمدح الممدوح بطريقة بارعة (لحُمَيْدٍ وحُمَيْدٌ... البيت).

وثمة قصيدة أخرى حَظيت بحسن التخلُّص مدح فيها ابن جَبَلة ممدوحه عبدالله بن طاهر، مُبتدراً إياها بوصف الشيب، متخلِّصاً لمدح الممدوح قائلاً[5]:

رَاعَهُ الشَّيْبُ إِذْ نَزَلْ ** وَكَفـاهُ مِـنَ العَـذَلْ

وَصَـــلَ اللَّهُ للأَميـــ ** رِعُرى المُلْكِ فَاتَّصَلْ

ومن التخلُّصات الجيِّدة أيضاً قول ابن جَبَلة يمدح حُمَيْداً الطُّوسيَّ[6]:

بِـأَبي مالَـكَ عَنّي ** مائِلَ الطَّرْفِ كَليلا

جَعَلَ اللَّهُ حُمَيْداً ** لِبَني الـدُّنيا كِفـيلا

وبعد عتاب في مُفتتح القصيدة تخلَّص ابن جَبَلة للمدح بشيء من براعة الانتقال، غير أن ابن جَبَلة لم يُوفَّق في التخلُّص في موضعين من شعره، الأول قصيدته في مدح أبي دُلف

(1) شعر ابن الجبلة، ص59.

(2) نفسه والصفحة نفسها.

(3) نفسه، ص60.

(4) نفسه، ص 89.

(5) نفسه، ص93.

(6) شعر ابن جبلة، ص93.

العِجْليّ التي تُعد أجود قصائده، مستهلاً إياها بحديث مُفعم بالحسرة على أيام الشباب التي انقضت عَجْلى، وأعقبتها أيام شيب وضعف وهرم، قائلاً[1]:

ذادَ وْردُ الغَيِّ عَنْ صَدَرِهْ ** وَارْعَوى وَاللَّهْو مِنْ وَطَرِهْ
وَ أَبَتْ إِلَّا الوَقارَلَهُ ** ضَحِكاتُ الشَّيْبِ في شَعَرِهْ
نَدَمي أَنَّ الشَّبابَ مَضى ** لَم أُبَلِّغهُ مَدى أَشَرِهْ

وبعد مقدمة طويلة عن الشيب والشباب تخلَّص ابن جَبَلة تخلُّصاً مفاجئاً على طريقة القدماء (دع ذا)، يقول[2]:

دَعْ جَدا قَحْطَانَ أَو مُضَرٍ ** في يَمانيهِ وَفي مُضَرِهْ
وامتَدِحْ مِنْ وَائِلٍ رَجُلاً ** عَصَرُ الآفاقِ مِنْ عَصَرِهْ

والموضع الثاني الذي تخلَّص فيه ابن جبلة تخلُّصاً مفاجئاً، ولكن ليس على طريقة القدماء، مُفتتحاً قصيدته بالغزل، منتقلاً إلى غرضه الرئيس مادحاً حُمَيْداً الطُّوسيَّ بلا تمهيد لهذا الانتقال، قائلا[3]:

أَبَيْتَ فَما تُسْعِفُ ** وَجُرْتَ فَما تَنْصِفُ
وَتَحْلِفُ لي بِالهَوى ** وَتَنْكُثُ ما تَحْلِفُ
حُمَيْدٌ أَبو غَانِمٍ ** لَهُ الشَّرَفُ الأَشْرَفُ

وفي مواضع أخرى باشر ابن جَبَلة موضوعه دون التقديم له بمقدمة، ومن تلكم المواضع قوله[4]:

جَعَلَ اللهُ مَدْخَلَ الصَّومِ فَوْزاً ** لِحُمَيْد وَمتْعَةً في البَقاءِ

وقوله[5]:

غَدا بِأَميرِ المُؤمِنينَ وَيُمْنِهِ ** أَبو غانِمٍ غَدْو النَّدى وَالسَّحائبِ

(1) نفسه، ص65.
(2) شعر ابن جبلة، ص67.
(3) نفسه، ص86.
(4) شعر ابن جبلة، ص30.
(5) نفسه، ص41.

وقوله[1]:

بِطاعَةِ اللَّهِ طُلْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ ** وَنُصْحِ هادٍ أَمينِ المُلْكِ مَأْمُونِ
حُمَيْدٌ يا قاسِمَ الدُّنيا بِنائِلِهِ ** وَسَيْفِهِ بَيْنَ أَهْلَ النُّكْثِ وَالدِّينِ

ومما لا ريب فيه أن جُلَّ قصائد شاعرنا ابن جَبَلة نالت حظها من حُسْن التخلص. لا غَرْوَ فحُسن التخلص يكثر وجوده في أشعار المتأخرين... ويعزُّ وجوده في قصائد المتقدمين[2]. وهو ما أبدعه المحدثون من الشعراء دون من تقدمهم[3].

المبحث الثالث

خاتمة القصيدة

الانتهاء قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون مُحْكَماً، لا تمكن الزيادة عليه، لا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الآخر قُفْلاً له[4].

وينبغي لكل بليغ أن يختم كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتيم، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع ... فالخاتمة في كلّ شيء هي العُمدة في محاسنه، والغاية في كماله[5].

وبعد حديث النقاد الأقدمين عن خاتمة القصيدة وشروط جودتها، حقيق بي أن أُطبِّقه في خواتيم شاعرنا ابن جَبَلة، ولاسيما في قصائده المادحة التي أَلَمَّت بغير قليل من شروط جودة الخاتمة، مادحاً حُمَيْداً الطُّوسيَّ وأبا دُلف العِجْليَّ، ذاكراً كرم مَحْتِدهما ونائلهما الغَمْر. فمن ذلك قوله مادحاً حُمَيْداً الطُّوسيَّ جاعلاً إياه مصدراً أصيلاً من مصادر الكرم الفيَّاض، فالناس يتشبثون به، وقد قيَّض الله جَلَّ وعلا لحُمَيْدٍ نعمة إطعام الناس، ولذا أحاطت الخاتمة بكرم الممدوح وعطاياه الجَمَّة، موحية بانتهاء الكلام[6]:

مَلِكٌ يَأمَلُ العِبادُ نَدَاهُ ** مِثْلَ ما يَأمَلونَ قَطْرِ السَّماءِ
صَاغَهُ اللَّهُ مُطْعِمَ النَّاسِ في الأَرْ ** ضِ وَصَاغَ السَّحابَ لِلإِسْقَاءِ

(1) نفسه، ص111.

(2) انظر: كتاب الطراز للعلوي اليمنيّ 3/181-182.

(3) انظر: عيار الشعر لابن طباطبا العلويّ ص115-118.

(4) العمدة 1/239.

(5) كتاب الطراز للعلوي اليمنيّ 3/183-184.

(6) شعر ابن جَبَلة، ص30.

ولمَّا كان حُمَيْدٌ الطُّوسيُّ قائداً بطلاً لا يُشقُّ له غُبار، وجد ابن جَبَلة في تلك الصفات مجالاً رحباً للتغنِّي بها، فلحُمَيْد مكارم جَمَّة، كرماً تارة، وبطشاً بالأعداء تارة أخرى، يقول ابن جَبَلة مُرْتَجِزاً[1]:

أَفنَتْ مَساعيهِ حِسابَ العَدِّ ** لَهُ بِكُلِّ أَكَمَةٍ وَوَهْدِ

سَحابَةٌ تُغْنِي وَأُخْرى تُرْدي ** كَالدَّهْرِيَعْدُو مَرَّةً وَيُعْدي

وَيْستَحِيلُ مَعْلَماً ويَهْدي

هذه الأشطار أوحت بانتهاء الكلام وكانت قُفْلاً له، ولعلَّ صداها يبقى في الأسماع، لا ينفك يُردِّد صفات حُمَيْد الطُّوسيّ.

ومن الخواتيم الجيِّدة أيضاً قول ابن جَبَلة يمدح حُميْداً الطُّوسيَّ مُلمّاً بكثير من شروط جودة الخاتمة التي ألحّ عليها النقاد الأقدمون كثيراً[2]:

وَقَحْطانُ تَبْهى بِهِ ** وَتَبْهى بِهِ خِنْدِفُ

وَتُضْحي بِهِ طَيِءٌ ** عَلى غَيْرِها تَشْرُفُ

وقوله أيضاً[3]:

أَصبَحتَ للمُلْكِ عِرْنِيناً تَقومُ بِهِ ** يَوْمَ الكَرِيهَةِ جَدَّاعَ العَرانينِ

نُهْدي لَكَ المَدْحَ مَوْزُوناً مُحَبَّرَهُ ** وَتُكْسِبُنا عَطاءً غَيْرَ مَوْزُونِ

ففي الخاتمتين آنفتيْ الذكر صفات مدح جمَّة، فحُمَيْد رمز الفخار والسؤدد والعزة، فكم تباهت به قحطان وخِنْدف، وبزَّت به طيئ غيرَها من القبائل. مُوطِّداً أركان الملك ببأسه ورباطة جأشه في الملمات والنوازل. فقمين بشاعرنا ابن جَبَلة أن يمدح ممدوحه بشعر موزون مُحبَّر، كيف لا وعطاؤه لا تحدُّه حدود. ولذا جمعت الخاتمتان كثيراً من شروط الجودة؛ لأنهما حوتا حسن المعنى، وصفاء اللفظ، وأوحتا بانتهاء الكلام.

وثمة معنى أكثر منه ابن جَبَلة في خواتيم قصائده وصفُه ممدوحه بالرأس وغيره بالذنب، كقوله يمدح أبا دُلف العِجْليَّ [4]:

(1) شعر ابن جبلة، ص53.

(2) نفسه، ص87.

(3) نفسه، ص111.

(4)شعر ابن جَبَلة، ص36.

و أثوِفي الأَرْضِ أَو استَفْزِزْبِها ** أَنْتَ عَلَيها الرَّأسُ وَالنَّاسُ الذَّنَبْ

وقوله يمدح حُمَيْداً الطُّوسيَّ[1]:

تَناهَتْ بِكَ قَحْطانٌ ** إِلى الغَايَةِ وَالحَسَبْ

فَفاتَتْ شَرَفَ الأَحْيا ** ءِ فَوْتَ الرَّأسِ للعَجَبْ

وقوله يمدح حُمَيْداً أيضاً[2]:

والنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمامُ الهُدى ** رَأْسٌ وَ أَنْتَ العَيْنُ في الرَّأْسِ

مقصد الشاعر أن يجعل ممدوحه في مكان عالٍ كموضع الرأس في الجسد، وغيره تابعاً متأخراً كالذنب. وإن بدا المعنى مكرراً مألوفاً عند العامة دعك عن الخاصة، فإن ابن جَبَلة أراد أن يختم قصائده تلك بتقدم ممدوحه على غيره.

ختم شاعرنا ابن جَبَلة بعضاً من قصائده، داعياً لمَمدوحَيْه أبي دلف العِجْليّ وحُمَيْد الطُّوسيّ قائلاً[3].

أَبا دُلَفٍ بُورِكتَ في كُلِّ بَلْدَةٍ ** كَما بُورِكَتْ في شَهْرِها لَيْلَةُ القَدْرِ

ثم قال في مدح حُمَيْد[4]:

وَقَليلٌ مِنْ أَيادِيـ ** كَ عَلى النَّاسِ كَثيرُ

فَابقَ ما عُدَّ مِنَ الدَّهـ ** رِ سُنوهُ وَالشُّهورُ

دعا ابن جَبَلة لممدوحه أبي دُلف العِجْليّ بالبركة والخير الكثير، كما بارك الحقُّ جَلَّ وعلا في ليلة القَدْر التي تفضل ألف شهر، ودعا لممدوحه حُمَيْد الطُّوسيّ بالبقاء حيّاً على مر الدهور والسنين.

أجل، لقد كره الحُذَّاق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء؛ لأنه من عمل أهل الضعف، إلا الملوك فإنهم يشتهون ذلك[1].

(1) شعر ابن جبلة، ص40.

(2) نفسه، ص74.

(3) نفسه، ص55.

(4) نفسه، ص63.

ورغم أن أبا دلف العِجْليَّ وحُمَيْداً الطُّوسيَّ ليسا مَلِكَيْنِ، ولكنهما قائدان كبيران قمينان بالدعاء لهما، ولعلَّ هذا يُسوّغ لابن جَبَلة أن يختم قصيدتيه آنفتيْ الذكر بالدعاء.

ختم شاعرنا ابن جَبَلة بعضاً من قصائده بخواتيم مفتوحة لا توحي بانتهاء الكلام ومن ثمَّ لا تكون قُفْلاً له، من ذلك قوله مُجيباً محمد بن عبدالملك الزَّيَّات[2]:

أَقْصِرْ أَبا جَعْفَرٍ عَنْ سَطْوَةٍ جَمَحَتْ ** إِنْ لا تُقَصِّرْ بِها مالَتْ إِلى القِصَرِ

نهى الشاعر ابن الزَّيَّات عن تطاول سطوته، مُحذِّراً إياه من عواقبها، فبدت الخاتمة مفتقرةً لكلام يأتي بعدها يكون قُفْلاً لها.

ومن الخواتيم المفتوحة قول ابن جَبَلة يمدح عبدالله بن طاهر[3]:

لَيْتَهُ حِينَ جَادَ لي ** بِالغِنى جَادَ بالقَفَلْ

فالخاتمة تبدو مفتوحة، والنفس راغبة في إتمام الشاعر لذلك التمنّي بعودة الممدوح إليه.

وثمة خاتمة مفتوحة لمَّا وصف ابن جَبَلة خيل ممدوحه أبي دلف العِجْليّ، قائلاً[4]:

كَأَنَّ خَيْلَكَ في أَثْنَاءِ غَمْرَتِها ** أَرْسَالُ قَطْرٍ تَهامى فَوْقَ أَرْسَالِ

يَخْرُجنَ مِنْ غَمَراتِ المَوْتِ سامِيَةً ** نَشْرَ الأَنامِلِ مِنْ ذي القِرَّةِ الصَّالي

مُشبهاً الخيل وهي تندفع في حومة المعركة بأقصى سرعتها فوجاً تلو فوج بدفعات الغيث التي تنهلُّ واحدة بعد أخرى، ثم شبَّه كلَّ جماعة منها وهي تظهر من بين أستار الغبار المتطاير في جو المعركة، وبعضها يسبق بعضاً بمسافات قصيرة بأصابع المقرور الذي فردها لينال حظّاً أوفر من الدفء، فإذا هي مستوية متوازية إلَّا ما يبدو من فروق طبيعية بينها، تتمثل في طول بعضها وقِصَر سائرها. وقد أخذ شاعرنا ابن جَبَلة هذا المعنى في بيتيه آنفيْ الذكر من الأسْعَر الجُعْفيّ حين وصف الخيل قائلاً:

يَخْرُجنَ مِن خَلَلِ الغُبارِ عَوابِساً ** كَأَصابِعِ المَقْرُورِ أَقْعَى فَاصْطَلَى[1]

---

(1) العمدة 241/1.

(2) شعر ابن جَبَلة، ص56.

(3) نفسه، ص89.

(4) نفسه، ص96.

وعلى الرغم من جودة التشبيه في بيتيْ ابن جَبَلة، لكنَّ الخاتمة لم توحِ بانتهاء الكلام فبدا مفتقراً لقُفْل.

والخاتمة المفتوحة بدت واضحة في أُمِّ قصائد ابن جَبَلة التي مدح بها أبا دُلف العِجْليَّ (ذادَ وِرْدُ الغَيِّ عَن صَدَرِهْ...)، إذ ختمها الشاعر بخاتمة مفتوحة قائلاً[2]:

وَطَغَى حَتَّى رَفَعْتَ لَهُ ** خُطَّةً شَنْعاءَ مِنْ ذِكَرِهْ

أراد ابن جَبَلة وصف عقوبة أبي دُلف التي أنزلها بصعلوك عَاثَ في عمله يُدعى (قُرْقُور) وقد قضي عليه أبو دُلف، يقول[3]:

وَبِقُرْقُورٍ(3) أَدَرْتَ رَحا ** وَقْعَةٍ فَلَّتْ شَبا أَشَرِهْ

والخاتمة المفتوحة لا تغمط هذه القصيدة حقَّها، فقد قرَّظها غير ناقد كابن المعتز، واصفاً إياها بالغراء التي سارت في العرب والعجم[4]. وبأنها سارت مسير الشمس والريح[5]. وذكرها أبو الفرج الأصفهانيُّ بأنها من جيِّد شعره وحسن مدائحه[6].

والخاتمة المفتوحة في أُمِّ قصائد ابن جَبَلة ترجع إلى إسهابه في وصف عقوبة أبي دُلف التي أنزلها بالصعلوك (قُرْقُور)، وليس شاعرنا ابن جَبَلة ببِدْع في هذا، فمن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلِّقة، وفيها راغبة مشتهية، ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جعله خاتمة، كل ذلك رغبة في أخذ العفو، وإسقاط الكلفة، ألا ترى معلقة امرئ القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل عن شدة المطر، كأنَّ السِّباع... البيت، فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلَّقات، وهي أفضلها[7].

ولنا أن نقيس معلقة امرئ القيس في جودة مطلعها، وعدم جودة خاتمتها برائية ابن جَبَلة (أُمِّ قصائده) لمَّا ختمها بخاتمة مفتوحة.

---

(1) انظر: ديوان المعاني 106/2، والشعر والشعراء بتحقيق أحمد محمَّد شاكر 867/2، وشعر ابن جَبَلة، ص23-24.

(2) شعر ابن جَبَلة، ص70.

(3) نفسه والصفحة نفسها.

(4) طبقات الشعراء لابن المعتز، ص171.

(5) نفسه، ص178.

(6) الأغاني 254/8.

(7) العمدة 240/1-241.

ومما تقدم ذكره من خواتيم شاعرنا ابن جَبَلة يتضح أنها ألَّمت بكثير من شروط جودة الخاتمة، وبدا بعضها الآخر مفتوحاً لا يُوحي بانتهاء الكلام، وتبدو خواتيمه الجيِّدة أوفر عدداً وأرجح كفة من غيرها.

المبحث الرابع
وحدة القصيدة

يُقصد بالوحدة في القصيدة وحدة الموضوع، أو وحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع. وما يستلزم ذلك في ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير، والمشاعر وهو ما يُسمَّى بالوحدة العضوية[1].

وفي مصادر الأدب ومراجعه حديث جم عن وحدة القصيدة بدءاً من ابن طباطبا العلويّ[2]، والحاتميّ[3]، وصولاً إلى النقاد المحدثين مثل طه حسين[4]، وشوقي ضيف[5]، ومحمد غنيمي هلال[6]، وحسين عطوان[7].

أما وحدة القصيدة عند شاعرنا ابن جَبَلة فتوجد في قصيدة واحدة رثى بها حُمَيْداً الطُّوسيَّ مطلعها[8]:

أَلِلدَّهْرِ تَبْكي أَمْ عَلى الدَّهْرِ تَجْزَعُ ** وَما صَاحِبُ الأَيّامِ إِلَّا مُفَجَّعُ

وقد قرَّظها أبو الفرج الأصفهانيُّ قائلاً: "هي من نادر الشعر وبديعه..." [9]. وقال عنها أيضاً: "وإنما ذكرتُ هذه القصيدة على طولها؛ لجودتها وكثرة نادرتها، وقد أخذ البحتريُّ أكثر

(1) النقد الأدبي الحديث د. محمَّد غنيمي هلال،دار نهضة مصر (د.ت)، ص373.

(2) عيار الشعر، ص131.

(3) العمدة 117/2.

(4) حديث الأربعاء، د. طه حسين، طبع دار المعارف – مصر،ط2 (د.ت) 31/1-32.

(5) العصر الجاهليّ، د. شوقي ضيف، دار المعارف – مصر،ط1960،3م، ص226.

(6) النقد الأدبي الحديث، ص375-376.

(7) مقالات في الشعر والنقد، د. حسين عطوان، دار الجيل – بيروت، ط1،م1987، ص215.

(8) شعر ابن جَبَلة، ص81.

(9) الأغاني 107/18.

معانيها فسلخها، وجعلها في قصيدتيه اللتين رثى بهما أبا سعيد الثغريَّ: انظرْ إلى العليا كيف تُضام..."[1].

رثى ابنُ جَبَلة حُمَيْداً الطُّوسيَّ، مُظهراً براعة في الرثاء، مُعزّياً جمهور العرب في ما أصابهم من الحادث الجَلل، ذاكراً الحزن والألم المُمض لوفاة حُمَيْد، مُردّداً أن ابنه مُحمَّداً هو خير خَلَف له، وأن الله رأب صدع الأُمَّة به، لأنه ورث عن أبيه كلَّ خصاله من البسالة والشهامة والقيادة الحكيمة، مؤبناً إياه، مُعدِّداً شمائله من إغاثة الملهوف، والأخذ بيد الضعيف، وحماية الأعراض وقيادة الكتائب، والانتصار على الأعداء، والصمود إزاء أشد المحن[2].

يقول ابن جَبَلة[3].

أَلَـم تَـرَ للأَيَّـامِ كَيْـفَ تَصَـرَّمَتْ ** بِـهِ، وَبِـهِ كانَـتْ تُـذادُ وَتُـدفَعُ

وَكَيفَ التَقى مَثوًى مِنَ الأَرْضِ ضَيِّقٌ * عَلى جَبَلٍ كانَتْ بِهِ الأَرْضُ تُمْنَعُ

لَمَّـا انْقَضَـتْ أَيَّامَـهُ انْقَضـى العُـلا * وأَضْحَى بِهِ أَنْفُ النَّدى وَهوَ أَجْدَعُ

هَـوى جَبَلُ الـدُّنيا المَنيعُ وَغَيْثُهـا ال * مَريـعُ وَحاميهـا الكَمِيُّ المُشَـيَّعُ[4]

بَكى فَقْـدَهُ رُوحُ الحَيـاةِ كَمـا بَكى * نَداهُ النَّدى وَ ابنُ السَّبيلِ المُدَفَّعُ

وَفارَقَـتِ البِـيضُ الخُـدورَ وَأُبْـرِزَت * عَواطِـلَ حَسْـرى بَعْـدَهُ لا تَقَنَّـعُ

وَقَـــد رَأَبَ اللهُ المَـــلا بِمُحَمَّـــدٍ * وَبِالأَصْـلِ يَنْمـى فَرْعُـهُ المُتَفَـرِّعُ

أَغَـــرُّ عَلـــى أَسْـــيافِهِ وَرِماحِـــهِ * تُقَسَّـمُ أَنْفَـالُ الخَمـيسِ وَتُجْمَـعُ

حَـوى عَـنْ أَبيـهِ بَـذْلَ رَاحَتِـهِ النَّـدى * وَطَعْـنَ الكُلى وَالزَّاعِبِيَّـةُ شُـرَّعُ[5]

في القصيدة وحدة شعور حزين من مفتتحها إلى خاتمتها؛ لأنها لم تخرج عن معاني الرثاء قِيدَ أُنْملة، فبدت مترابطة الأجزاء، مُلمَّة بضروب الرثاء، نَدْباً وتأبيناً تارة، وعزاءً تارة أخرى.

ولا توجد وحدة في شعر ابن جَبَلة خلا هذه القصيدة، ولعل ذلك يرجع إلى أنه صنع صنيع الشعراء الجاهليين والإسلاميين، وشعراء عصره من العباسيين في قصائدهم المادحة، مستهلاً إياها بمقدمات تقليدية، مُزاوجاً بين مذهب القدماء ومذهب الشعراء المعاصرين له،

(1) الأغاني108/18.

(2) شعر ابن جَبَلة، ص14 (بتصرف).

(3) نفسه، ص81.

(4) نفسه، ص82.

(5) نفسه، ص83، الزاعبية: رماح منسوبة إلى زاعب وهو رجل من الخزرج كان يصنعها. (لسان العرب: زعب).

فضلاً عن أنه نظم كثيراً من شعره في شكل مقطوعات. كلُّ ذلك باعد بينه وبين وحدة القصيدة، وهذا يدلُّ على أن شاعرنا ابن جَبَلة أخذ من القديم نصيباً ومن شعراء عصره نصيباً آخر.

أهم نتائج الدراسة

1- استهل ابن جَبَلة بعضاً من قصائده بوصف الشيب وبكاء الشباب، وبدا متنازعاً بين المشيب وأُنس الشباب، ففي الأول الحكمة والعظة والوقار رغم ازورار الحِسان، وفي الثاني زهو لافت لحُور المُقل. مُعزّياً نفسه عن رحيل الشباب ومُقام المشيب. داعياً إلى بكاء الشباب لا إلى الربع والطلل، مخالفاً ما اعتاده الشاعر القديم من ذكر الأطلال وبكاء الديار.

2- افتتح ابن جَبَلة أيضاً بعضاً من قصائده بمقدمات غزلية، مُفعمة بالهُيام والرقة والعذوبة بعيدة عن الإسفاف والتدنّي. بادئاً قصيدة من شعره بوصف الأطلال- رغم مناداته بتركها – دون إكثار من حشد الرسوم البدوية، ولعلَّ المقدمة كانت تقليداً فنيّاً صِرْفاً لا حظَّ للتجربة الحقيقية فيها، كيف لا والشاعر حضريٌّ مُوغل في الحضارة البغدادية.

3- مال ابن جَبَلة في مقدمة الاعتذار والعتاب إلى الحِجاج والمنطق مُستلهماً عقله الخصب وذهنه الثاقب مستلّاً السخيمة من نفس ممدوحه أبي دُلف حين غضب عليه، وحيناً كان ابن جَبَلة يبتدر القصيدة بالاعتذار والعتاب، مُظهراً الوقار والعزة والكرامة مع أعظم رجال الدولة ذاكراً صبره ورباطة جأشه، مُهدداً بالقطيعة والجفوة.

4- أَلمَّ ابنُ جَبَلة بمقدمة وصف الطبيعة، واصفاً الغيث وصفاً بديعاً، ذاكراً السحاب الداكن، وكأنه اكتسى ثياباً رمادية. كما أَلمَّ أيضاً في مقدماته بوصف الخمر، زاعماً أنها تُخفِّف عنه أثقال الحياة وخطوب الزمان.

5- في شعر ابن جَبَلة تخلُّصاتٌ جيِّدة للغاية، تخلَّص فيها الشاعر إلى غرضه الرئيس بطريقة بارعة، ولم يسمت سَمْتَ القدماء في تخلُّصاتهم على طريقة (دع ذا) (وعيس بريناها) إلَّا في موضع واحد، مادحاً أبا دُلف العِجْليَّ، ثم تخلَّص بطريقة مفاجئة مادحاً حُمَيْداً الطُّوسيَّ لا على طريقة القدماء، ولكنه انتقال مفاجئ. ولعله أسهب في مقدمتيْ القصيدتين مما جعله يتخلَّص تخلُّصاً مفاجئاً. وكان ابن جَبَلة في بعض قصائده يباشر موضوعه دون مقدمات.

6- ختم ابن جَبَلة جُلَّ قصائده بخواتيم جيِّدة أوحت بانتهاء الكلام، وكانت قُفْلاً له. كما ختم بعضاً منها بخواتيم مفتوحة لا توحي بانتهاء الكلام، في مقدمتها خاتمة قصيدته الرائية (وطغى حتى رفعت له...) وختم قصيدتين بخاتمتين تضمنتا الدعاء لممدوحَيْه أبي دُلف العِجْليّ

وحُمَيْد الطُّوسيّ، رغم أن الحُذَّاق من الشعراء كرهوا ختم القصيدة بالدعاء إلَّا للملوك، وابن جبلة كان قد رفع ممدوحَيْه فوق الملوك، ولذا فحريٌّ به أن يدعو لهما.

7- نصيب وحدة القصيدة يسير جدًّا في شعر ابن جبلة، إذ توجد وحدة شعور في مرثيته (أللدهر تبكي أم على الدهر تجزع...) التي رثى بها حُمَيْداً الطُّوسيَّ، مُعزِّياً جمهور العرب في فقدهم الجلل مؤبِّناً إياه، مُعدِّداً شمائله. وقلة وحدة القصيدة في شعر ابن جَبَلة تدل على أنه كان ينهج نهج الشاعر القديم في استهلال قصائده بمقدمات شتَّى، وإن نهج حيناً نهج شعراء عصره، وهذا كافٍ لأن يجعل وحدة القصيدة تَزْوَرُّ عنه.

ثبت المصادروالمراجع

القرآن الكريم

1- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين – بيروت، ط14، 1999م.

2- الأغاني، أبو الفرج الأصفهانيُّ، طبعة دار الكتب المصرية، وطبعة الساسي.

3- امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، د.الطاهر أحمد مكي، طبع دار المعارف- مصر، ط1، 1968م.

4- البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقيّ،ج9، مكتبة المعارف – بيروت، ط2، 1990م.

5- تاريخ الأدب العربيّ، عمر فرَّوخ، دار العلم للملايين – بيروت، ط6، 1992م، الأعصر العباسية.

6- تاريخ بغداد، الخطيب البغداديُّ، ج11، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1997،1م.

7- تاريخ الطبري، أبو جعفر محمَّد بن جرير الطبريّ،ج9، دار سويدان – بيروت(د.ت).

8- حديث الأربعاء، د.طه حسين،ج1، طبع دار المعارف – مصر، ط2، (د.ت).

9- ديوان المعاني، أبوهلال العسكريّ، مطبعة القدسي - القاهرة، 1352هـ.

10- رسالة الغفران، أبو العلاء المعريُّ، تحقيق: محمد عِزَّت نصرالله، طبع دار إحياء التراث العربيّ – بيروت، (د.ت).

11- سمط اللآلئ، أبو عبيد البكريّ الأندلسيّ، ج1، تحقيق:عبدالعزيز الميمنيّ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – مصر، 1936م.

12- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبليّ، ج2، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت (د.ت).

13- شعر علي بن جَبَلة المُلقَّب بالعكوَّك، تحقيق: د. حُسين عطوان، دار المعارف – مصر، ط3، (د.ت).

14- الشعر والشعراء، ابن قتيبة،ج2، تحقيق أحمد محمَّد شاكر، طبع دار المعارف – مصر، عام 1966م.

15- الصناعتين، أبوهلال العسكريّ، تحقيق:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبع دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة، ط1، 1371م.

16- طبقات الشعراء، ابن المعتز، تحقيق عبدالستَّار فرَّاج، دار المعارف – مصر، 1956م.

17- العصر الجاهليّ، د. شوقي ضيف، دار المعارف – مصر، ط3، (د.ت).
18- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانيّ،ج2، تحقيق: محمَّد محيي الدين عبدالحميد، طبع دار الجيل – بيروت، ط4، 1972م،.
19- عيار الشعر، ابن طباطبا العلويّ، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1982م.
20- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلويُّ اليمنيُّ،ج3، دار الكتب العلمية – بيروت (د.ت)، ج3.
21- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، اليافعيّ،ج2، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، (د.ت)، ج2.
22- مقالات في الشعر والنقد، د.حسين عطوان، دار الجيل – بيروت، ط1، 1987م.
23- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهليّ، د. حسين عطوان،دار المعارف-مصر،1970م.
24- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسيّ الثاني، د. حسين عطوان، دار الجيل – بيروت، ط1، 1982م.
25- النقد الأدبي الحديث، د.محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، (د.ت).
26- نَكْتُ الهَمْيان في نُكَت العُميان، الصفديّ، المطبعة الجمالية – مصر، 1911م.
27- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان،ج3، تحقيق د. يوسف علي طويل ود.مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية- بيروت، (د.ت).